e-Şarkiyat İlmi Araştırmalar Dergisi/Journal of Oriental Scientific Research (JOSR)
ISSN:1308-9633
Ağustos-2018 Cilt:10 Sayı:3 (21)August-2018 Volume:10 Issue:3 (21) Sayfa:1001-1015

من بلاغة التّشبيه التّمثيلي في الحديث النبوي*

Ramazan ÖZMEN**

الملخص

يعد التشبيه من الأساليب البلاغية الجميلة التي لها تأثيرها في نفس السامع، وهو من أكثر الألوان البيانية اتساعا وانتشارا في الكلام، ويرجع بعض محاسن الكلام وجمالياته إليه؛ لما يحويه من تقريب للمعاني وتصويرها في صورة حسية يراها المخاطب ماثلة أمام عينيه، وكما قيل: المحسوس أقرب إلى النفس من المعقول، والنفس أشد تعلقا بما تراه وتحسه؛ لهذا كان للتشبيه تأثير كبير في نفس السامع والمتلقي، ولهذا وجدناه بكثرة في منظوم الكلام ومنثوره، فقد اشتمل القرآن الكريم في كثير من آياته على التشبيه، بهدف تقريب المعاني للمخاطبين وتصويرها لهم بصورة محسوسة تتقبلها النفس وتألفها سريعا، وقد وقع التشبيه بأنواعه بكثرة في أحاديث النبي(صلى الله عليه وسلم)، ولا يخلو كلام فصيح منه، فالتشبيه وسيلة من وسائل نقل المعاني والأفكار بصورة محسوسة تتراءى للسامع أمام عينيه، وقد حفلت السنة النبوية بهذا اللون البلاغي الرفيع،وقد كثر هذا اللون البلاغي في السنة النبوية في مقامات التعليم والنصح والإرشاد، ولهذا آثرت أن أتقدم ببحثي هذا، والذي عنونت له (من بلاغة التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي)، والتشبيه التمثيلي فرع وقسم من أقسام التشبيه، وقد وجدت أن كثيرا من أحاديث النبي(صلى الله عليه وسلم)– قد لجأت إلى هذا اللون البلاغي في تصوير معانيها، وإظهارها وإبرازها من خلال تلك الصور التشبيهية الرائعة؛ لهذا أردت أن أظهر السمات والخصائص البلاغية في نماذج من أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ لأقف وأوقف القارئ معي على محاسن التشبيه، وجماليات استخدامه في الحديث النبوي من خلال نماذج من أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) أقوم بتحليلها لبيان الأسرار البلاغية التي اشتمل عليها التشبيه في تلك الأحاديث.

الكلمات المفتاحية: التشبيه التمثيلي، البلاغة، الإعجاز، الحديث النبوي.

ELOQUENCE IN AL-HADITH AL-NABAWIREPSESENTATIVE ANALOGY AS AN EXAMPLE

Abstract

Analogy is considered one of the beautiful rhetorical methods that has an impact on the listener's mind. It is the broadest and most spread kind of rhetoric types in the speech, and some of the beauties and aesthetics of speech are referred to it as it contains approximation of meanings and picture is in sensory image where the listener sees it pictured clearly to him. It has been said: the feasible is closer to the soul than rational, and the soul is more attached to what it sees and feels; therefore, analogy has a great impact on the listener's soul and that is why we found it in a great deal in the speeches and poems. The Holy Quran contains analogy in much of its verses with the aim of bringing the meanings closer to listeners and to portray it to them in a tangible way accepted by the soul and

Makale Gönderim Tarihi: 28.05.2018, Kabul Tarihi: 27.07.2018
Doi: 10.26791/sarkiat.427763

* Bu çalışma, 16-19 Ocak 2018 tarihlerinde Kâhire'de düzenlenen *International Congress on Culture and Civilization* adlı uluslararası kongre'de aynı başlık ile sunulan tebliğin genişletilmişve geliştirilmiş halidir.

** Dr. Öğr. Üyesi, Van YYÜ İlâhiyât Fakültesi, Hadis Ana Bilim Dalı. rozmen@yyu.edu.tr
ORCID ID: 0000-0002-8077-5783

adapted to it quickly. Analogy with all its types was found in Prophet Mohammed's Hadiths, there is no classic speech without analogy, and analogy is a method of transferring meanings and ideas in a sensory image pictured in the listener's eyes. Prophet's Sunnah contains much of this delicate rhetoric type, and it is observed in education, advice and guidance sections. Thus I preferred to present this research of mine, titled "Eloquence in Prophet Mohammed's Hadith", and eloquence is a branch of analogy, and I found out that many of prophet's Hadiths used this rhetorical method to explain, show and highlight the Hadith's meanings through that rhetorical method. Thus, I wanted to demonstrate the characteristics and rhetorical characteristics of the Prophet's Hadiths to view myself and the reader the beauty of using analogy in Hadith through giving examples of Prophet's Hadiths that I examine to show its rhetorical secrets.

Keywords: Eloquence, Rhetoric, Miracles, Prophet's Hadiths

التمهيد

عرف البلاغيون التشبيه بأنه:"إلحاق أمر بأمر في معنى بينهما بأداة"([1]) في حين عرفه العسكري (1009/400) بقوله:"الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام"([2])

وهذا التعريف أقصد تعريف البلاغيين عام يطلق على عموم التشبيه، إلا أنني أردت في بحثي هذا أن يكون في قسم خاص من أقسام التشبيه ألا وهو التشبيه التمثيلي، فالتشبيه التمثيلي يعد قسما وفرعا من فروع التشبيه، فكما قيل كل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيل، وقد اختلف البلاغيون في تعريف التشبيه التمثيلي، فهناك آراء ثلاثة حول تعريف التشبيه التمثيلي:

الرأي الأول: للعلامة الإمام عبد القاهر الجرجاني(1079/471)، والذي يرى أن التشبيه التمثيلي محصور ومحدد في كل تشبيه كان وجه الشبه فيه عقليا غير غرزي سواء أكان مفردا ، أو مركبا حيث قال : "اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين أحدهما أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل، والآخر أن يكون الشبه محصلا بضرب من التأول. إذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا"([3])

الرأي الثاني: هو رأي السكاكي (1229/626): أن التشبيه التمثيلي هو ما كان وجه الشبه فيه مركبًا عقليًّا كقول الله تعالى: "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ"([4])،فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم في الآية هو رفع الطمع على تسني مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب ، وأنه أمر توهمي كما ترى منتزع من أمور جمة ([5]) ، فوجه الشبه

([1]) القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، **الإيضاح في علوم البلاغة**، دار إحياء العلوم، ط الرابعة، بيروت، 1998، ص 203.

([2]) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، **الصناعتين الكتابة والشعر**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1371 ه-1952 م، ص 72.

([3]) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، **أسرار البلاغة**، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بدون تاريخ، ص 75.

([4])2/البقرة: 17

([5]) السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب، **مفتاح العلوم**، تح: نعيم زرزور، 1407ه-1989م، ص 154.

هنا هيئة عقلية انتزعت من أمور متعددة إذن ، فهذا هو رأي السكاكي (1229/626): يرى أن هذه الهيئة العقلية هي التي تُمثِّل التشبيه التمثيلي.

الرأي الثالث: هو رأي الخطيب القزويني (1338/739) حيث يرى الخطيب القزويني أن التشبيه التمثيلي هو ما كان الوجه فيه مركبًا سواء كان حسيًّا أو عقليًّا ، وهذا أعم من رأي السكاكي([6]) (1229/626)، والذي أعتمده في هذا البحث هو رأي الخطيب القزويني (1338/739)، وهو رأي جمهور البلاغيين الذي خص التشبيه التمثيلي بكون وجه الشبه فيه مركبا.

1. بلاغة التشبيه التمثيلي

قبل الشروع في بيان فضيلة التمثيل في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أورد أقوال البلاغيين والمفسرين في بيان أهمية التمثيل في الكلام، ودوره في الكشف عن خبايا المعاني وتصويرها في أبلغ صورة، وأبدأ بكلام شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني (1079/471).

يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني (1079/471) : "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعانى أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة، وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا، فإن كان مدحا كان أبهى، وأفخم، وأنبل في النفوس، وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغر المواهب والمنائح، وأسير على الألسن، وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر، وإن كان ذما كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشد، وحده أحد، وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر، وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد وشرفه أجد ولسانه ألد، وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسل، ولغرب الغضب أفل، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظا كان أشفي للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلى الغياية، ويبصر الغاية ويبرىء العليل ويشفي الغليل"([7])

ويشير العلامة أبو السعود إلى فضيلة التمثيل، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة : "مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ"([8])، فيقول أبو السعود رحمه الله: "وقوله (مَثَلُهُمْ) زيادة كشف لحالهم وتصويرٌ غِبَّ تصويرِها بصورة ما يؤدي إلى الخسارة بحسب المآل بصورة ما يفضي إلى الخَسار من حيث النفسُ تهويلاً لها وإبانةً لفظاعتها، فإن التمثيلَ ألطفُ ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزالِه من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمعِ سَوْرةِ الجامح الآبي، كيف لا وهو رفعُ الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف، وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف"([9])

([6]) القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص 234.
([7]) الجرجاني، **أسرار البلاغة**، ص 95-98.
([8]) 2/البقرة: 17
([9]) ينظر: أبو السعود محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج1 ص 61.

ويعد التشبيه التمثيلي من أهم الفنون البلاغية، وأوفرها حظا يقول الطاهر بن عاشور: "للتشبيه التمثيلي الحظ الأوفى عند أهل البلاغة ووجهه أن من أهم أغراض البلغاء وأولها باب التشبيه ، وهو أقدم فنونها، ولا شك أن التمثيل أخص أنواع التشبيه؛ لأنه تشبيه هيئة بهيئة فهو أوقع في النفوس وأجلى للمعاني."([10])

ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الأنبياء والحكماء([11])، ولهذا قد ضرب الله سبحانه الأمثال، وصرفها قدرا وشرعا ويقظة ومناما، ودل عباده على الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشيء إلى نظيره، واستدلالهم بالنظير على النظير بل هذا أهل عبارة الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة، ونوع من أنواع الوحي، فإنها مبنية على القياس والتمثيل، واعتبار المعقول بالمحسوس([12])، ولهذا، فقد استعان النبي صلى الله عليه وسلم في كلامه بأساليب الإيضاح والتعليم، وفى مقدمة هذه الأساليب يأتي أسلوب"ضرب الأمثال"،ولم يستخدم الرسول هذا اللون البلاغي إلا لهدف أسمى،وهو إبراز المعاني في صورة مجسمة لتوضيح الغامض، وتقريب البعيد، وإظهار المعقول في صورة المحسوس؛ لأجل ذلك ضرب النبي طائفة من الأمثال في قضايا مختلفة، ولما كان الهدف من ضرب الأمثال هو إدراك المعاني الذهنية المجردة وتقريبها من العقل؛ ليكون التأثير بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن، فضلا عن كثرته في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

يقول العلامة ابن الأثير (637): "وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه"([13])

هذا غيض من فيض وقليل من كثير عن بلاغة وأثر التمثيل في الكلام، من خلال أقوال العلماء، والآن أبدأ في بيان قيمة وأثر التمثيل في نماذج من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

2. الحديث الأول

حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: **"إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ**

([10])محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م،ج 1 ص 3.
([11]) الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج1 ص109
([12])ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**،تح:طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973م، ج 1 ص 190.
([13])أبو الفتح الجزري، ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي ، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1995، ج1 ص 378.

فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا."(14)

ما أجمل هذا الحديث النبوي الذي يشع رحمة ورأفة من النبي صلى الله عليه وسلم بأمته، فالرسول ما أرسل إلا رحمة بالأمة عليه الصلاة والسلام كما قال ربنا عز وجل: **"**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، وقوله تعالى: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك"، إنه الرحمة المهداة، الذي أرسله ربنا للعالمين كافة، رحمة لم ولن تعرف الدنيا لها مثيلا، فقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث إلى الغاية التي من أجلها أرسل، وهي أن يأخذ بأيدينا إلى الجنة، وأن ينجينا من النار، وقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى من خلال تلك الصورة التشبيهية التمثيلية الرائعة، فقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه برجل على النار يحاول دفع الفراش عن الوقوع فيها، لكن الفراش يعاند ويقتحم النيران، ولا يستجيب لكل محاولات الدفع التي تثنيه عن الوقوع في النار، فتهلك وتحترق، شبه ذلك بحاله صلى الله عليه وسلم مع أمته، فهو يدعوهم إلى النجاة من النيران والفوز بالجنان، ويمسكهم عن الوقوع في النار إلا أن بعضهم يرفضون هديه، ويختارون الوقوع في النار بسوء صنيعهم، وابتعادهم عن هديه عليه الصلاة والسلام.

وجدير بالذكر أن للصورة التمثيلية في الحديث دورها الفعال في الكشف عن المعنى وتوضيحه حيث استطاع التمثيل في الحديث الشريف أن يكشف عن المعنى، وأن ينقل للمخاطب المعنى المراد من خلال تلك الصورة المجسمة؛ وذلك لإظهار المعقول في صورة المحسوس الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال تلك الصورة المحسوسة الماثلة للعيان، إنه تشبيه في غاية الروعة ، فجميع عناصر الصورة التمثيلية من المشبه والمشبه به يوحي بعضها بتلك الصورة الحية وتبعث فيها الحركة والحياة لتوحي بتلك الحقيقة المراد إيصالها للمخاطب.

فمقصود الحديث أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شبة المخالفين له بالفراش، وتساقطهم في نار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا مع حرصهم على الوقوع في ذلك ومنعه إياهم، والجامع بينهما اتباع الهوى وضعف التمييز، وحرص كل من الطائفتين على هلاك نفسه، وقال القاضي أبو بكر بن العربي هذا مثل كثير المعاني، والمقصود أن الخلق لا يأتون ما يجرهم إلى النار على قصد الهلكة، وإنما يأتونه على قصد المنفعة، واتباع الشهوة، كما أن الفراش يقتحم النار لا ليهلك فيها بل لما يعجبه من الضياء، وقد قيل إنها لا تبصر بحال وهو بعيد، وإنما قيل إنها تكون في ظلمة، فإذا رأت الضياء اعتقدت أنها كوة يظهر منها النور، فتقصده لأجل ذلك، فتحترق، وهي لا تشعر، وقيل: إن ذلك لضعف بصرها، فتظن أنها في بيت مظلم، وأن السراج مثلا كوة، فترمي بنفسها إليه، وهي من شدة طيرانها تجاوزه فتقع في الظلمة، فترجع إلى أن تحترق، وقيل: إنها تتضرر بشدة النور، فتقصد إطفاءه، فلشدة جهلها تورط نفسها فيما لا قدرة لها عليه.(15)

ولا يخفى على كل عاقل سر اختيار "الفراش" في الحديث للعصاة والمعرضين عن منهج الله عز وجل؛ وذلك لدلالة الفراش على الضعف والوهن، وسرعة سقوطها في النيران، وعدم التحمل فضلا عن أن التعبير بالفراش له إيحاءات في كلام العرب، فهم يتمثلون بها في الحمق والخفة؛ لأنها تطرح نفسها في النار، فكذلك العصاة بطيشهم، وخفة عقولهم، وحماقتهم

---

(14) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي،ج7، ص184، دار الدعوة، ط الثانية، اسطنبول، 1413ه-1992م.

(15) ابن حجر العسقلاني،أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379ه، ج6، ص464.

يلقون بأنفسهم في النيران، والرسول صلى الله عليه وسلم يحاول بكل سبيل أن يبعدهم، وينقذهم من السقوط في النيران، والمخاطب بهذا الحديث من خلال تلك الصورة التمثيلية المحسوسة، والماثلة للعيان لا شك أنه سيعقد مقارنة بين هذين الشيئين المتقابلين، ويفسح المجال لعقله للوقوف على اختيار أحد الطرفين، فالصورة قد وضحت معالمها في ذهن المخاطب، ولم يبق أمامه إلا الحكم على اتباع أحد الطرفين.

وبهذا يكون التمثيل في الحديث الشريف قد أدى مهامه ووظيفته، وأفسح المجال أمام المخاطب، وهيأ عقله للوقوف بنفسه على الاختيار الأصوب الذي فيه صلاحه ومنفعته.

3. الحديث الثاني

ومن التشبيهات النبوية الرائعة الحديث الذي رواه الإمام أبو داود في سننه، والإمام أحمد في مسنده.

حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ، حَدَّثَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، حَدَّثَنَا مَرْزُوقٌ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحِمْصِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَسْمَاءَ الرَّحَبِيُّ، عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا" قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ" قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"**([16])

وهذا الحديث النبوي الشريف يكشف لنا عن حال الأمة الإسلامية، ويصور الواقع الذي ستعيشه هذه الأمة حين تبتعد عن منهج رسولها - صلى الله عليه وسلم -، وهو الواقع المرير الذي تحياه أمتنا الآن، حيث دبت فيها الفرقة؛ وذلك لحبها للدنيا، وكراهيتها للموت، وقد صور لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا الواقع الذي تعيشه الأمة، وتحياه تصويرا بارعا من خلال تلك الصورة التمثيلية التي وظفها الرسول صلى الله عليه وسلم للكشف عن هذا الواقع.

وفي الحديث تشبيهان تمثيليان: الأول: تداعي الأمم على هذه الأمة كتداعي الأكلة على قصعتها.

والثاني: تشبيه الأمة حينئذ بغثاء السيل.

في التشبيه الأول: يضعنا النبي - صلى الله عليه وسلم - أمام مشهد تصويري رائع حيث صور من خلاله صورة تكالب الأمم، وتدافعها للنيل من أمة الحبيب - صلى الله عليه وسلم - كما هو الحاصل في زماننا، يقول العظيم آبادي: "تتداعى بأن يدعو بعضهم بعضا لمقاتلتكم وكسر شوكتكم وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال - كما تداعى الأكلة - وهو جمع آكل، ورواية أبي داود لنا الآكلة بوزن فاعله"([17])

فالأمم على اختلاف ألوانها وأجناسها ولغاتها قد اجتمعوا جميعا على قلب رجل واحد؛ لينالوا من هذه الأمة، وقد أبدع النبي صلى الله عليه وسلم في تصوير هذا الاجتماع والاندفاع على الأمة بهدف كسر شوكتها حيث صورهم بقوم جياع قد اجتمعوا معا، وقد بلغ بهم الجوع مبلغة، وقد وضعت أمامهم قصعة ممتلئة بالطعام، فأتوا على آخرها، وهذه الصورة التشبيهية

([16])أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني، **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، الباب الخامس، رقم الحديث: 4297، ج4، ص483-484، دار الدعوة، ط الثانية، اسطنبول، 1413ه-1992م؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، ج 5 ص 278، دار الدعوة، ط الثانية، اسطنبول، 1413ه-1992م.

([17])العظيم آباديأبو الطيب محمد شمس الحق، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية، ط الثانية، بيروت، 1415ه، ج11، ص272.

الرائعة لتوحي بنفسية هذه الأمم العفنة والقبيحة، فقد اندفعوا بكل حقد، وحسد للقضاء على هذه الأمة، كما أن هؤلاء الجياع قد اندفعوا إلى القصعة بكل شراهة، ولعل الواقع الذي نعيشه الآن يشهد بصدق هذا الحديث، والجامع بين طرفي التشبيه هو الاهتمام والاندفاع نحو شئ مهم.

و في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم بالقصعة إشارة إلى ضعف الأمة وتفرقها حينئذ، حيث إن القصعة التي وضع فيها الطعام ينال منها الآكل كما يريد حتى يشبع، والقصعة لا تستطيع أن ترد آكلا عن تناول الطعام منها، وفي هذا إشارة بالغة إلى هوان وضعف الأمة حينئذ بحيث لا تستطيع الأمة أن ترد كيد أعدائها، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها لهوانها وضعفها، فهي والقصعة سواء.

يقول العظيم آبادي (1911/1329): "والمعنى كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضا (إلى قصعتها) الضمير للأكلة أي التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفوا وصفوا، كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم، أو ضرر يلحقهم، أو بأس يمنعهم قاله القارىء قال في المجمع أي: يقرب أن فرق الكفر، وأمم الضلالة أن تداعى عليكم أي يدعو بعضهم بعضا إلى الاجتماع لقتالكم، وكسر شوكتكم ليغلبوا على ما ملكتموها من الديار كما أن الفئة الآكلة يتداعى بعضهم بعضا إلى قصعتهم التي يتناولونها من غير مانع، فيأكلونها صفوا من غير تعب"([18])

إن الصورة التمثيلية في الحديث قد جاءت على المعنى بتمامه في صورة تشبيهية رائعة أوضحت المعنى، وقربته للمخاطب.

وفي التشبيه الثاني: غثاء كغثاء السيل، فالمشبه هو الأمة الكثيرة في عددها، ولكن هذه الكثرة بلا أثر، والمشبه به غثاء السيل، وتلك صورة تشبيهية رائعة جاءت للتأكيد على مضمون التشبيه الأول الدال على ضعف وهوان المسلمين حتى أصبحوا مطمعا لكل الأمم، وهنا ندرك جمال التشبيه وأثره في نفس المتلقي حيث اختار النبي صلى الله عليه وسلم التعبير عن ضعف الأمة وهوانها بالغثاء،"والغُثاءُ بالضم والمدّ ما يَحملِهُ السَّيلُ من القَمَشِ وكذلك الغُثَّاءُ بالتشديد، وهو أَيضاً الزَّبَد والقَذَر وحَدَّه الزجاج فقال الغُثاءُ الهالِكُ البالي من ورق الشجر الذي إذا خَرَجَ السيلُ رأَيته مخالِطاً زَبَدَه والجمع الأَغْثاء."([19]) والغين والثاء والحرف المعتل كلمةٌ تدلُّ على ارتفاعِ شيء دَنِيٍّ فوق شيء من ذلك الغُثَاء: غُثَاء السَّيْل يقال: غثا الوادِي يغثو، وأغثى يُغْثِي أيضاً قال: ويروى: "والغُثَّاء". ويقال لسَفِلة الناس: الغُثَاء([20])، ويضرب به المثل فيما يضيع، ويذهب غير معتد به.([21]) ، فاختيار الغثاء للدلالة على شدة الضعف، فالغثاء بمنظره يوحي بالكثرة، ولكن في حقيقة أمره يدل على الضعف، هكذا حال الأمة، فالأمة عددها كثير، ولكن مع كثرة العدد لا اختيار لها، فقد تفرقت الأمة، وضاعت قواها ، ولهذا صارت كلأ مباحا لكل أمم الأرض، كغثاء السيل الذي هو عبارة عن أشياء كثيرة، فهو خليط من أشياء كثيرة، ولكن مع كثرته إلا أن قليل من الماء يجرفه إلى حيث يشاء.

([18]) العظيم آبادي، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، ج11 ص 273.

([19]) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، ط الأولى، بيروت، ج15 ص115.

([20]) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي القزويني، **معجم مقاييس اللغة**، تح عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، 1423ه-2002م، ج4ص331.

([21]) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **غريب القرآن**، تح: صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، ط أولى، 1412ه ج1 ص 358.

فالبيان النبوي العظيم استطاع من خلال هاتين الصورتين التشبيهتين أن يوضح المعنى، وأن يسوق المعنى مصحوبا بالدليل من خلال تلك الصورة المحسوسة الماثلة للعيان.

4. الحديث الثالث

حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:**"مَثَلُ البَخِيلِ وَالمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ"**([22])

المعنى الإجمالي للحديث:

يوضح لنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث الشريف الفرق بين المنفق، والبخيل من خلال تلك الصورة التمثيلية الرائعة، فالرجل الأول "المنفق" عليه جبة أي: قميص ولكنه قميص من نوع خاص، فحلقاته من حديد؛ من أجل أن يتقي بهذا القميص سيوف الأعداء وضرباتهم، وقد وضع هذا الرجل المنفق القميص على بدنه بدءا من رقبته إلى أطراف قدميه، وهو المقصود من قوله عليه الصلاة والسلام "من ثديهما إلى تراقيهما"، فهذا الرجل المنفق قد اتخذ من قميصه وقاية له من ضربات السيوف قال صلى الله عليه وسلم:"فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت" أي: يمد يده فيكون القميص الذي ينزل على سائر بدنه وقاية وساترا له؛ لأنه يغطي سائر جسده.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: "أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه" حتى يلقى ثواب الله سبحانه وتعالى، فهذا الرجل المنفق.

كلما أنفق استرخت المفاصل، ويسرت يده، وإذا بالقميص يوارى هذا الإنسان، فقال صلى الله عليه وسلم: "حتى تخفي بنانه وتعفو أثره"، فالقميص الذي ارتداه هذا الرجل المنفق هو قميص الإنفاق كان سببا في حمايته ونجاته في الدنيا من المتربصين به من الأعداء، وكان سببا من نجاته في الآخرة من النيران، كل هذا بسبب فضيلة الإنفاق، ومعنى "تعفو أثره" أي: "تستر أثره يقال عفا الشيء وعفوته أنا لازم ومتعد ويقال: عفت الدار إذا غطاها التراب والمعنى أن الصدقة تستر خطاياه كما يغطي الثوب الذي يجر على الأرض أثر صاحبه إذا مشى بمرور الذيل عليه"([23])

وفي المقابل هذا الرجل البخيل في قوله عليه الصلاة والسلام:"وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا، إلا لزقت كل حلقة مكانها"، فالرجل البخيل قد ارتدى عين القميص الذي ارتداه الرجل المنفق من حديد، إلا أن كل حلقة من حلقات القميص الذي ارتداه قد لزقت مكانها، وهو يريد أن يوسع تلك الحلقات، ولكنها لا تتسع ، ويريد أن ينجو من عذاب الله يوم القيامة، ولكن هيهات هيهات!، ومن هنا ندرك الفرق الشاسع بين الرجلين من خلال تلك الصورة التشبيهية الرائعة.

من بلاغة التمثيل في الحديث الشريف:

يقول أديب العربية الرافعي (1356ه): "فأنت ترى ظاهر الحديث، ولكن فنه العجيب في هذا الحديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الإنسان، فهي من أشد الطبائع جمودًا، وصلابة، واستعصاء متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواءها، ومع ذلك، فإن

([22]) البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الزكاة، باب مثل البخيل والمتصدق، ج2، ص120-121.
([23])ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج3 ص 306.

السخاء بالمال يبسط منها وينتهي في الطبع إلى أن يجعلها لينة، فلا تزال تمتد، وتسبغ حتى يكون والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه؛ أما الشيخ فلا يناقض تلك الطبيعة، ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر، وقد جعل الجبة من الثدي إلى التراقى، وهذا من أبدع ما في الحديث؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته، يستوي في ذلك الكريم والبخيل، فهما على قدر سواء من هذه الناحية؛ وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد، فههنا يبسط الكريم بسطه الإنساني، أما البخيل فهو "يريد"؛ لأنه إنسان، والإرادة علم عقلي لا أكثر، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة [24] فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها، فهي، مستعصية متماسكة، فهو يوسعها فلا تتسع."([25])

قال الطيبي: "قيد المشبه به بالحديد إعلاما بأن القبض والشدة من جبلة الإنسان وأوقع المتصدق موقع السخي لكونه جعله في مقابلة البخيل إشعارا بأن السخاء هو ما أمر به الشارع وندب إليه من الإنفاق لا ما يتعاناه المسرفون"([26])

والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه، فتوسعت في الإنفاق والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه، فضاق صدره، وانقبضت يداه، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، وقال المهلب المراد أن الله يستر المنفق في الدنيا والآخرة بخلاف البخيل فإنه يفضحه ، وتعقبه القاضي عياض بأن الخبر جاء على التمثيل لا على الإخبار عن كائن قال، وقيل: هو تمثيل لنماء المال بالصدقة، والبخل بضده، وقيل: تمثيل لكثرة الجود والبخل، وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء، وتعود ذلك، وإذا أمسك صار ذلك عادة.([27])

وقد جعل مثل المنفق مثل من لبس درعا سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وخصته، وجعل البخيل كرجل يداه مغلولتان ما بين دون صدره، فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينها وبين أن تمر سفلا على البدن، واجتمعت في عنقه، فلزمت ترقوته، فكانت ثقلا ووبالا عليه من غير وقاية له، وتحصين لبدنه، وحاصله أن الجواد إذا هم بالنفقة اتسع لذلك صدره، وطاوعت يداه فامتدتا بالعطاء، وأن البخيل يضيق صدره، وتنقبض يده عن الإنفاق، وقيل: ضرب المثل بهما؛ لأن المنفق يستره الله بنفقته، ويستر عوراته في الدنيا والآخرة كستر هذه الجبة لابسها، والبخيل كمن لبس جبة إلى ثدييه، فيبقى مكشوفا ظاهر العورة مفتضحا في الدارين، وقال ابن بطال: يريد أن المنفق إذا أنفق كفرت الصدقة ذنوبه، ومحتها، كما أن الجبة إذا أسبغت عليه سترته ووقته، والبخيل لا تطاوعه نفسه على البذل، فيبقى غير مكفر عنه الآثام كما أن الجبة تبقي من بدنه ما لا تستره، فيكون معرض الآفات، وقال الطيبي : شبه السخي إذا قصد التصدق يسهل عليه بمن عليه الجبة ويده تحتها، فإذا أراد أن يخرجها منها يسهل عليه، والبخيل على عكسه، والأسلوب من التشبيه المفرق، قال: وقيد المشبه به بالحديد إعلاما بأن القبض والشدة جبلة الإنسان، وأوقع المتصدق موضع السخي مع أن مقابل البخيل هو السخي لا المتصدق إشعارا بأن السخاوة هي ما أمر به الشرع وندب إليه من الإنفاق إلا ما يتعاناه المبذرون ، وقال المهلب: المراد أن الله يسر المنفق في الدنيا وفي الآخرة بخلاف البخيل، فإنه يفضحه ومعنى تعفو أثره تمحو خطاياه واعترض عليه القاضي

([24]) الكَزَّةُ يعني الغليظة لسان العرب مادة (كزز)

([25]) مصطفى صادق الرافعي، **وحي القلم**، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، ج3ص15.

([26]) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج3 ص307.

([27]) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج3 ص307

عياض بأن الخبر جاء على التمثيل لا على الإخبار عن كائن ، وقيل : هو تمثيل لنماء المال بالصدقة والبخل بضده ، وقيل: تمثيل لكثرة الجود والبخل ، وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء، وتعود ذلك، فإذا أمسك صار ذلك عادة.([28])

وقد ظهر لنا في الحديث الشريف كيف كان للتمثيل في الحديث أثره الفعال في توضيح المعنى والكشف عن المراد، وللمخاطب أن يدير الكلام في الحديث على الحقيقة، ثم يعقد مقارنة بين الأسلوبين ليدرك في نهاية المطاف ، ويسلم بجمال التمثيل، ويسلم بقيمته في توضيح المعاني ، والكشف عن الخبايا فضلا عن دلالته على الإيجاز، ومن هنا ندرك السر وراء استخدام البلغاء للتمثيل في الكلام وشغفهم به.

5. الحديث الرابع

حدثنا أبو نعيم حدثنا زكريا قال سمعت عامرا يقول سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ والْوَاقِعِ فيها، كَمثل قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفلَهَا، فكان الذي في أَسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهمْ، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا فِي نَصِيبِنَا خَرقا ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعاً."**([29])

هذا الحديث النبوي الشريف يصور من خلاله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حال المجتمع المسلم الذي يكثر فيه الفساد، وترتكب فيه المعاصي، فإذا لم يكن هناك من العلماء وأولي الأمر الذين يأخذون على أيدي هؤلاء العابثين؛ لغرق المجتمع بأسره، فقد صور الحبيب صلى الله عليه وسلم المجتمع المسلم، وكأن المجتمع بأكمله يركب سفينة واحدة، فإذا عمد سفيه من السفهاء، وخرق السفينة، فإنها ستغرق بمن فيها جميعا دون استثناء، فالرسول صلى الله عليه وسلم "مثل القائم على حدود الله" يقصد المدافعين عن حدود الله عز وجل، وهم العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويغارون على دين الله، و "مثل الواقع فيها"، وهو الذي ينتهك الحرمات، ويفعل الموبقات، شبههما الرسول عليه الصلاة والسلام بقوم استهموا على سفينة أي: اقترعوا على سفينة لينظروا من يكون في أسفلها ، ومن يكون في أعلاها، وخرجت السهام فكان جماعة على سطح السفينة في أعلاها، وجماعة في أسفل السفينة، وكان الذين في الأسفل إذا أرادوا أن يأخذوا الماء، فكان لزاما عليهم أن يمروا على من هم فوقهم في أعلى السفينة، فشعروا بالمشقة من هذا الصنيع، فقالوا فيما بينهم نخرق خرقا في السفينة، ونأخذ ما نريد من الماء، فلو أن من هم في أعلى السفينة تركوا من هم في أسفلها يخرقون السفينة لهلكوا جميعا، ولكن يجب عليهم أن يضربوا على أيديهم؛ لتكتب النجاة للجميع، وهذا المثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للقائمين على حدود الله، ولمن يتعدون حدود الله – عز وجل -، فلو أن القائمين على حدود الله – عز وجل – تركوا العابثين، ومن يرتكبون المعاصي؛ لكان في ذلك الفساد والإفساد هلاك للجميع، ولكن يجب على القائمين على حدود الله عز وجل أن يقدموا النصح، وأن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لينجو الجميع.

وقد جاء التمثيل في قوله صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم على حدود الله" إلخ، وهو تشبيه معقول بمحسوس؛ شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر

([28]) العيني، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، ج13 ص 365.

([29]) البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ، ج3، ص111.

بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد، كما شبهت الهيئة الحاصلة من التقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء، ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ وهي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، وفي الحالة الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم فيما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإن النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، وكما أن الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد ، فإن مجتمع المداهنين الساكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم.

يقول أديب العربية الرافعي: "فهذا تمثيل لحالة طائفة في "الأسفل" تعمل لرحمة من هم في "الأعلى": عاطفة شريفة، ولكنها سافلة، وحمية ملتهبة، ولكنها باردة، ورحمة خالصة، ولكنها مهلكة؛ ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلاغة الاجتماعية، والغفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهؤلاء من ألف وثلاثمائة سنة: أنتم المصلحون إصلاحًا مخروقًا...!"([30])

لقد زاد هذا التشبيه المعنى المراد وضوحاً وجمالاً ؛إذ إنه شبه الأمر المعقول، وهو حال الناس في المجتمعات بأمر محسوس، وهو حال قوم ركبوا سفينة، وهو أمر يمكن إدراكه بالحس،ولاشك أن هذا أدعى لفهم المراد والتأثر به.

وتصوير الأمر بهذه الصورة البديعة يترك في نفس السامع لا شك أثراً حياً يدرك به كيف يتطور أمر المنكر في المجتمع، فهو يبدأ صغيراً كخرق يسير، ثم لا يزال يتسع إن لم يتداركه أهل الحكمة حتى تصعب السيطرة عليه ،وإن ذلك ليوحي للسامع بأهمية الأخذ على أيدي العابثين والقيام على حدود الله، ويجعله مستحضراً لتلك النتائج الرهيبة المترتبة على التقاعس عن أمر الله، والمداهنة في حدوده سبحانه.

ومن يدقق النظر في الحديث الشريف يجد الدقة في اختيار الألفاظ، وذلك أنه لما كان الرسول "صلى الله عليه وسلم" هو الذي لا ينطق عن الهوى،وقد أوتي جوامع الكلم، فإن من سمات حديثه صلى الله عليه وسلم الدقة واختيار اللفظ المناسب في موضعه بحيث لا ترى في كلامه "حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ،ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى، وتأتياً لسره في الاستعمال"

وإن هذا الأمر ليتجلى في اختياره صلى الله عليه وسلم للألفاظ التي وصف بها أهل السفينة، فقد جاءت تلك الألفاظ مطابقةً لحال الناس حتى في ما لا يتعلق تعلقاً مباشراً بالقضية الرئيسة التي هي موضع عناية الحديث.

فمن ذلك مثلاً قوله "استهموا([31]): "فإنه لو اكتفى بذكر ركوبهم في السفينة لما أضر ذلك بالمعنى المقصود وهو أهمية الأخذ على أيدي العابثين ، لكن ذكر الاستهام يدل على أن مواضع القوم في السفينة إنما جاءت على وفق الحق والعدل، ففي عرف الشرع أن القرعة عند الاحتياج إليها وسيلة من وسائل إقامة الحق، وإشاعة العدل، وعليه، فليس لأهل السفل أن يظهروا امتعاضهم[32] من كون نصيبهم قد جاء في أسفل السفينة.

([30]) مصطفى صادق الرافعي، **وحي القلم**، المكتبة العصرية، القاهرة، 2002، ج3 ص 8.

([31]) استهموا أي: اقترعوا ينظر **تاج اللغة وصحاح العربية**، الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد ، تح د محمد تامر وآخرون ، دار الحديث – القاهرة ط أولى 2009م ، مادة (قرع).

([32]) امتعض بمعنى: انزعج ينظر **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفى، تح مجمع اللغة العربية، دار الدعوة – القاهرة بدون تاريخ مادة (م ع ض)

ونلاحظ صفة العموم في هذا التشبيه، وذلك أن الدارس للتشبيهات التي توجد في أمثلة الشعوب وآدابها، سيجدها ولاشك معبرة عن زمانها وبيئتها التي قيلت فيها ، بينما نجد الأمر على خلاف ذلك في تشبيهات القرآن الكريم ، والسنة المطهرة، فهي تتسم بالعمومية بحيث لا يجد السامع في أي عصر وأي مصر كبير عناء في فهم المثل ، ومعرفة المقصود منه.

ولا غرو في ذلك، فإنه لما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - رسولاً للناس كافة، وكانت رسالته هي الرسالة الخاتمة المخاطَب بها الناس كلهم إلى يوم الدين، فقد انبنى على ذلك أن يكون الخطاب فيها متصفاً بصفة العموم حتى يمكن للكل فهمه ومعرفة المقصود منه .

وفي هذا الحديث نلمح صفة العمومية في اختياره صلى الله عليه وسلم لعناصر المشبه به، فهي الماء والسفينة وأهل السفينة، وهي عناصر يستوي في إدراكها كل الناس حتى الذين يعيشون في بيئة لا بحار فيها ولا أنهار،وهي أمور لازمة للبشرية في كل عصورها مهما تقدمت علومها وازدهرت حضارتها، بل إن جُل من خوطبوا بهذا المثل لأول مرة كانوا من أهل البر الذين لم يعتادوا ركوب البحر ، بل هو نفسه - صلى الله عليه وسلم - لم يركب سفينة قط.

ثم إن كون أهل السفل في المثل المضروب أرادوا خرق السفينة ليستقوا يدل على أن السفينة كانت تجري بهم في نهر عذب الماء، وهو ما لا وجود له في جزيرة العرب بالكلية.

ومعنى ذلك أن التشبيه لم يكن مستمداً من البيئة التي كان يعيش فيها النبي صلى الله عليه وسلم،وهذا يؤكد ما أسلفناه من وجود صفة العموم في هذا المثل العظيم.([33])

6 .الحديث الخامس:

"مثل القائم على حدود الله"

روى ابن عدي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع"[34]، ومعنى الحديث: الغناء سبب للنفاق، بل هو من أكبر الأسباب التي تشغل القلب وتلهيه عن ذكر الله – عز وجل -، ويؤدي إليه، وأصله وشعبته، والصورة التشبيهية التي جاء عليها الحديث الشريف من قبيل التشبيه التمثيلي؛ لأن الصورة التشبيهية في الحديث منتزعة من عدة أمور كما هو الحال في التشبيه التمثيلي، فالتشبيه في الحديث الشريف منتزع من عدة أمور متوهمة، الأول: المشبه، وهو إنبات الغناء للنفاق، والثاني المشبه به، وهو إنبات الماء للزرع، حيث شبهت حالةُ إنبات الغناءِ النفاق في القلب بحالة إنبات الماء للزرع، ووجه الشبه بين الطرفين هو الهيئة الحاصلة من حدوث شيء إثر علة حاصلة، فكما أنّ حياة الزرع لا تكون إلا بالماء، فكذلك حياة النفاق تكون بالغناء، وغيره من المؤثرات الأخرى، وإن كان المؤثر الرئيسي هو الغناء، وهو مما عمت به البلوى في زماننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والترتب في الظهورفي كلا الطرفين هو الوجه المشترك بين الجانبين، فإن أردنا أن نزيل النفاق من قلوبنا، فعلينا أن نجنب أنفسنا الغناء، فالغناء يورد الإنسان موارد الهلاك، وكما قلت فالنفاق لا يقتصر وجوده على الغناء فحسب، فهناك صور أخرى وكثيرة تكون سببا في نفاق القلوب، ولكن يأتي في مقدمة وصدارة تلك المؤثرات الغناء، فهو العلة الغائية، كما أن للزرع مؤثرات عد ة، كجودة التراب ...إلخ إلا أن السبب الأول، والعامل الرئيسي إنما هو الماء .

([33]) عبد الآخر حماد الغنيمي، **الفوائد من حديث مثل القائم**، دار البيارق، الأردن -عمان، ط الأولى، 1419ه-1999م، ص21-25.

([34]) المناوي محمد عبد الرؤوف، **فيض القدير**، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الأولى 1415 ه - 1994م، ج4 ص

وهذا الحديث النبوي الشريف من خلال تلك الصورة التشبيهية الرائعة استطاع أن يظهر للمسلم حقيقة الغناء، وأن يبين الأثر المترتب على تعلق القلوب به من خلال تلك الكلمات الموجزة، ومن خلال تلك الصورة المحسوسة التي نراها جميعا، وهي صورة الماء المتدفق الذي يحتاج إليه الزرع، وكلنا نعلم أنه لا حياة للزرع دون الماء ، كما قال ربنا – عز وجل – (وجعلنا من الماء كل شئ حي)، فالماء سبب لحياة النبات، وسبب للإنبات، فالحديث الشريف يشير إلى قوة الصلة، وشدة الترابط بين الغناء والنفاق، كما يظهر ذلك من شدة الصلة والترابط بين النبات والماء، ومن خلال تلك الصورة المحسوسة أقصد صورة الماء وحياة النبات وإنباته استقر المعنى واتضحت الصورة، وظهر المراد، فما أجمل التمثيل في إظهار المعاني، وكشفه عن حقائق الأشياء، وهنا تظهر لنا حقيقة التمثيل، وأهمية في توضيح المعاني، وتعلق القلوب بها.

7. الخاتمة

تبين لنا من خلال تحليل بعض الأحاديث النبوية التي ورد فيها أسلوب التمثيل أن لأسلوب التمثيل فائدة كبيرة في توضيح الكلام، وإبراز خبايا المعاني الكامنة وراءه؛ لهذا نجد أن هذا الأسلوب يكثر في فصيح الكلام منظومه ومنثوره؛ لما لهذا الأسلوب من قدرة كبيرة على تحفيز الأذهان، وحثها على التفكر؛ ولهذا السبب نجد أن هذا الأسلوب يكثر في مقامات التعليم والنصح والإرشاد إلخ، ومن خلال دراسة هذا الأسلوب في نماذج من أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - قد توصلت لبعض النتائج:

1- للتمثيل في الكلام أثر بالغ في توضيح المعاني وإثارة الفكر، وتصوير المعقول في صورة المحسوس فضلا عن إيجازه في الكلام.

2- يكثر أسلوب التمثيل في مقامات النصح والإرشاد والتعليم، والتحذير من عواقب الأمور؛ لأنه يقوم بعقد مقارنة بين صورتين تعتمد على إثارة الذهن وتحفيز الفكر فتقبل النفس طواعية دون تردد على اختيار أحد الطرفين.

3- إيثار النبي – صلى الله عليه وسلم – لأسلوب التمثيل في كلامه – صلى الله عليه وسلم - يدل على فيض الرحمة، وحرصه الشديد على إعطاء مساحة للعقول من أجل أن تختار ما فيه صلاحها، وأن تجتنب ما فيه ضرر رها، وهذا لا يكون إلا بنقل المعقول إلى المحسوس حتى تدركه العيون، وتطمئن إليه القلوب، وتسلم به العقول.

4- يظهر لنا بوضوح وجلاء أن التشبيه التمثيلي الذي ورد ذكره في الأحاديث محل الدراسة قد جاء مطابقا لمقتضى الحال، فضلا عن الترابط والتناسق والتلاؤم الذي وقع بين طرفي الصورة التمثيلية، وهما المشبه والمشبه به، وجاءت الصورة البيانية في الأحاديث الشريفة في أعلى درجات البلاغة، والتي تطابق فيها المبنى مع المعنى في صورة أخاذة تثير الوجدان، وتحرك الشعور.

5- تبين من خلال دراسة التشبيه التمثيلي في الأحاديث السابقة الحرص التام من قبل الرسول – عليه الصلاة والسلام - على إقناع أمته ومخاطبيه بما يريد من خلال استخدام التمثيل في مخاطبتهم لعلمه – صلى الله عليه وسلم – بأهمية هذا اللون البلاغي في إثارة الوجدان، ومخاطبة العقول، وتأثيره في النفوس من خلال نقله للأمور العقلية، وتصويرها في صور حسية تكون ماثلة أمام العيون، فيعطي مساحة للعقول في إثارة الفكر، ولا تجد العقول المفكرة، والقلوب الواعية أمامها إلا أن تسلم بما طلب منها ، وهذا يدل على حرص النبي، ورحمته بأمته صلى الله عليه وسلم.

المصادر والمراجع

ابن حجر العسقلاني،أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**،دار المعرفة - بيروت، ط أولى 1379 هـ.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا،**معجم مقاييس اللغة**، تح: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ط ثالثة 1423 هـ2002م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن أحمد الأفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الدمشقي، **إعلام الموقعين عن رب العالمين** تح:طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل - بيروت، ط خامسة 1973.

أبو هلال العسكري،الحسن بن عبد الله بن سهب، **الصناعتين الكتابة والشعر**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط عيسى البابي الحلبي ط ثالثة 1371ه هـ – 1952م

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، **الجامع الصحيح**، دار الدعوة، ط الثانية، اسطنبول، ط أولى 1413هـ -1992م.

إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، الناشر: مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة – القاهرة بدون تاريخ

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، **أسرار البلاغة**، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني – القاهرة، بدون تاريخ.

الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تح د محمد تامر وآخرون، دار الحديث – القاهرة ط أولى 2009م

الجزري، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ط أولي 1995

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **غريب القرآن**، تح: صفوان عدنان، دار القلم، دمشق، ط أولى 1412 هـ.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر،**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق، **سنن أبي داود**، دار الدعوة، ط الثانية، اسطنبول، ط ثانية 1413ه هـ -1992م.

السكاكي، أبو يعقوب سراج الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد، **مفتاح العلوم**، تح: نعيم زرزور، ط أولى 1407 – 1989م

محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط ثالثة 1997م.

عبد الآخر حماد الغنيمي، **الفوائد من حديث مثل القائم**، دار البيارق، الأردن -عمان، الطبعة الأولى، 1419هـ-1999م

العظيم آبادي، أبو الطيب محمد شمس الحق، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، 1415.

العيني،أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الحنفي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدون تاريخ.

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عمر،**الإيضاح في علوم البلاغة**،دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة، 1998.

مصطفى صادق الرافعي، **وحي القلم**،المكتبة العصرية – بيروت، بدون تاريخ.

المناوي محمد عبد الرؤوف، فيض القدير، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى 1415 ه - 1994م